إلى الأستاذ توفيق الحكيم

للأستاذ سيد قطب

— ١ —

صديقي الكبير الأستاذ توفيق الحكيم .

شكراً لك على هديتك الكريمة : كتابك الجديد « الملك أوديب » . إنها شيء عزيز ثمين بالقياس إليّ هنا في تلك « الورشة » الضخمة السخيفة ، التي يسمونها : « العالم الجديد » !

لقد استروحت في كلمة الإهداء : « ممن يذكرك دائماً » نسمة رخية من روح الشرق الأليف — فالذكرى هي خلاصة هذه الروح — وما كان أحوجني هنا إلى تلك النسمة الرخية ... إن شيئاً واحداً ينقص هؤلاء الأمريكيين — على حين تذخر أمريكا بكل شيء — شيء واحد لا قيمة له عندهم — الروح !

بحث يقدم للدكتوراه في إحدى جامعاتهم — وقد قدم فعلا — عن : « أفضل الطرق لغسل الأطباق » أحب إليهم ألف مرة وأهم من رسالة عن « الإنجيل » ، إن لم يكن أهم من ذات الإنجيل !

أما وأنا أكتب إليك هذه الكلمات في مطعم ، شاب أمريكي يثب على صدره « سبع » ويجثم على ظهره « فيل » ! لا تُرعْ ! فذلك السبع إنما هو رسم يملأ فراغ رباط عنقه ، وهذا الفيل إنما هو رسم كذلك يملأ فراغ صدريته ! لقد رسم السبع باللون البرتقالي الفاقع على أرضية « أخضر زرعي » ، ورسم الفيل باللون الكحلي على أرضية « كرنبي » ، وهذا السبع مع رباط الرقبة مدلى فوق الصدرية لا تحتها حسب مزاج « التقاليع » !

هذا هو الذوق الأمريكي الغالب في الألوان !

والموسيقى ... ولكن مالي وهذا كله ؟ إن ذلك حديث آخر ليس وقته الآن .

أردت فقط أن أقول لك : كيف كانت هديتك لي في « العالم الجديد » !

* * *

أشعر بأنني أرد لك بعض جميلك حين أحدثك بصراحة كاملة عن عملك الفني الجديد ، مؤثراً هذه الطريقة على كتابة مقالة نقد . ليست لي الآن أقل رغبة لكتابة مقالات ، وليس لدي الوقت أيضاً ؛ إنما يشجعني على الكتابة اللحظة أنني أستحضر شخصك في خيالي ، وأبادلك حديثاً بحديث ، ليس فيه كلفة التحضير ، ولا تعمل الفكرة ، ولا اصطناع الأسلوب ... ما أحوجني هنا لمن أبادله حديثاً بحديث ، في غير موضوع الدولارات ونجوم السينما وماركات السيارات ... حديثاً في شؤون الإنسان والفكر والروح !

* * *

دعني أحدثك أولا عن « المقدمة » فهي تكوّن مع « مقدمة الترجمة الفرنسية » و « التعقيب على المقدمة الفرنسية » مبحثاً خاصاً له قيمة ذاتية في موضوعه . ثم إن الحديث عنه قد يكون في ذاته حديثاً عن تمثيليتك الجديدة .

وأسر مما خطوة خطوة في بحثك الممتع الطويل ...

مالي أحس — أيها الصديق الكريم — كأنك خائف قلق من ذاكرة التاريخ ؟ ذلك الخوف وهذا القلق اللذان يدفعانك دفعاً إلى تسجيل دورك بقلمك في خط سير التمثيلية العربية ؟

أحب أن أطمئنك منذ اليوم على أن التاريخ الأدبي لن ينسى لك دورك الأساسي الذي قمت به في وضع « القالب الفني » للمرة الأولى في تاريخ الأدب العربي للرواية التمثيلية ... وصنعه على أساس فني صحيح . وإلا فإن محاولات كثيرة قد سبقتك لوضع هذا القالب (أشرت أنت إليها إشارة سريعة في مقدمتك ، وسيتناولها تاريخ النقد بالتفصيل والتطويل) إلى أن جئت أنت فوفقت نهائياً لتكوين قالب فني للحوار يحمل « فكرة » تدخله في باب الأدب ، ونهج نهجاً لم يلحقك فيه إلى اليوم أحد ، ولست أدري متى يظهر التالي لك ، أو المتفوق عليك ، فيه ؟

* * *

هذا دورك الذي لن ينسى . دور في « تاريخ التطور الفني » . أما نصيبك الذي سيبقى في باب « القيم الفنية المطلقة » فأخشى أن أقول : إنك لم تقم به بعد ، لأنك — في باب التمثيليات — لم تهتد بعد إلى النبع الأصيل الذي تستقي منه روحك العميقة لا فكرك الواعي ، فتنشيء عملاً خالداً فيه حياة وروح

لقد اهتديت أحياناً إلى النبع — ولكن في باب غير باب التمثيلية — في : « تائب في الأرياف » وفي « عودة الروح » وفي لمحات متفرقة في « زهرة العمر » وبعض كتبك الأخرى . أما في باب التمثيلية ، فلم يكن لك — غير القالب الفني — شيء يبقى ، اللهم إلا خفقات ضائعة مخنوقة في ركام أجنبي غريب !

معذرة يا صديقي ، فذلك وجه الحق فيما أرى . وستعلم بعد قليل لماذا أرى . أما الآن فأحب أن أسجل حقيقة أخرى — إن دورك هذا الذي حققته إلى اليوم فعلا ، ليس صغيراً ولا قليل الأهمية . فهو دور حاسم في تاريخ هذا الفصل من كتاب الأدب العربي . إنه القنطرة التي لم يكن منها بد ، ليعبر عليها الفنان الأصيل الموهوب فيما بعد . وقد تكون أنت نفسك ذلك الفنان الأصيل الموهوب في عمل فني جدير ، حينما تهتدي إلى النبع الأصيل المخزون في نفسك تحت ركام من الثقافة الغربية الطاغية .

إنني لا أعيب الثقافة — فهي أمر لا بد منه اليوم لتكوين الأديب — ولكن الذي أعنيه أنك أيها الصديق — شأنك في هذا شأن ذلك الجيل كله من الشيوخ — تساهم ثقافتك الفنية الغربية ، قبل أن تجد ذاتك الأصيلة .

من هنا يفقد فنك — كما تفقد أعمالهم جميعاً — ذلك الطعم الخاص الذي يتذوقه القارىء في آداب كل أمة ، والذي يميزه عن آداب الأمم الأخرى .

إنكم لا تجدون أنفسكم في خضم ثقافتكم . إنكم تمتحون من رؤوسكم أكثر مما تستوحون قلوبكم . وهذا هو العنصر الخطر عليكم جميعاً .

إنك تهتدي إلى النبع في مقدمتك ، ولكن بذهنك الواعي ، لا بشعورك الناضج . لهذا يخطئك التوفيق عند التطبيق .

تقول :

« ما من شيء أقوى من الميراث ! — إذا كان للخلود يد فإن الميراث يده التي ينقل بها الكائنات من زمان إلى زمان — ما طبائع الأفراد وخصائص الشعوب ومقومات الأمم ، إلا ميراث صفات وسمات ، تنحدر من جيل إلى جيل . وإن ما يسمونه العراقة في شعب ليس إلا فضائله المتوارثة من أعماق الحقب . وإن الأصالة في الأشياء والأحياء هي ذلك الاحتفاظ المتصل بالمزايا الموروثة كابراً عن كابر ، وحلقة بعد حلقة . . هكذا يقال في شعب أو رجل أو جواد . وكذلك يقال في فن أو علم أو أدب — » .

كلام صادق ثمين عميق جميل — ولكنك تعرفه بوعيك يا صديقي ، ولا يمكن مهما فعلاً دون أن تدري ، في اتجاهاتك الفنية وأعمالك .

لقد اتجهت وأنت تحاول وضع القالب الفني للتمثيلية العربية إلى الأساطير الإغريقية تستلهمها موضوعاتك — لماذا ؟ لأن نشأة المسرح كانت إغريقية ، ولأن الأوربيين — وهم ورثة الإغريق — قد جعلوا المسرح الإغريقي والتمثيلية الإغريقية والأساطير الإغريقية أساساً لأعمالهم !

ولكنك أنت يا سيدي لست من ورثة الإغريق . لا أنت ولا شعبك الذي تعيش فيه . قد تكون من ورثتهم بثقافتك وقراءاتك ولكن هذه قشرة رقيقة لا تشيء فناً خالداً أصيلا .

« ما من شيء أقوى من الميراث . إذا كان للخلود يد فإن الميراث يده التي ينقل بها الكائنات » ، كما تقول !

إنك في حاجة لأن تستلهم وراثتك الأصيلة المتغلغلة في ضميرك آلاف السنين ومئات الأحقاب ، لا أن تستلهم ثقافتك الطارئة في عمرك الفردي المحدود .

هنالك النبع يا صديقي لو شئت لأعمالك الخلود !

***

لقد تساءلت . لماذا لم ينقل العرب ، فيما نقلوا عن الإغريق ، التراجيديا الإغريقية ؟ وكان من بين التعليلات التي ذكرتها — وإن لم ترضها — « صعوبة الفهم لذلك القصص الشعري ، وكله يدور حول أساطير لا سبيل إلى فهمها إلا بشرح طويل ، يذهب بلذة التتبع لها ، ويقضي على متعة الراغب في تذوقها » .

لقد كدت تضع يدك على السر ، ولكنك تركته مسرعاً لتقول :

« لكن على الرغم من مواجهة هذا التعليل ، فإني لا أعتقد أن هذا أيضاً يحول دون نقل بعض آثار هذا الفن . فإن كتاب الجمهورية لأفلاطون قد ترجم إلى العربية . وما أشك أن فيه من الأفكار حول تلك المدينة المثالية ما يشق على العقلية الإسلامية أن تسيغه . ولكن ذلك لم يمنع من نقله — بل إن هذه الصعوبة

بالذات قد دفعت الفارابي إلى أن يتناول جمهورية أفلاطون ، فيضفي عليها ثوباً جديداً من خواطره ، ويصبها في قالب عقليته الفلسفية الإسلامية » .

وهكذا تبدد نهائياً من السر وكان منك على لسة إسبع !

إن الفارق بين كتاب الجمهورية والتراجيديا الإغريقية لبعيد .

إن الجمهورية موضوع يحتاج إلى (فهم) والتراجيديا موضوع يحتاج إلى (شعور) . وهذه هي العقدة في قضية العرب والفن الإغريقي ؛ ثم في قضيتك أنت بالذات يا صديقي العزيز .

إن الصعوبة الأساسية في الأساطير واستلهامها ليست في الحاجة إلى (الفهم) فالفهم قد يكون ممكناً بالشرح على نحو من الأنحاء . ولكن الصعوبة الحقيقية كامنة في الشعور بها في أعماق الضمير . إن الأسطورة تنبع من ضمير الشعب لا من رأسه ؛ وتعيش كامنة في دمه وأحاسيسه . هي « ميراث » شخصي لكل شعب ، لا يمكن نقله إلى ضمائر الشعوب الأخرى ، كما يمكن نقل الثقافات إلى الرؤوس ، بل كما يمكن أحياناً نقل الأعمال الأدبية التي لا تقوم على أسس وراثية كالأساطير .

لا بد أن تعيش الأسطورة حياتها في تاريخ الأمة وضميرها ، حتى يستسيغها ذوقها ، وتنبض لها قلوبها .

لهذا لم يكن ممكناً أن يشعر العرب بجمال التراجيديا الإغريقية المستمدة في صميمها من هذه الأساطير ، ولا أن تنتقل إلى تراثهم كما انتقلت الفلسفة ، لأن الفلسفة تراث ذهني في الأغلب ، والأسطورة تراث شعوري في الصميم .

هذه هي المشكلة . أما ما قلته من أن السبب الأساسي هو شعور العرب بحاجتهم إلى الفلسفة وإلى المعارة ، وعدم شعورهم بالحاجة إلى الشعر . فهو نفسه يحتاج إلى تعليل ! لماذا لم يشعروا بحاجتهم إلى الشعر ؟ لأن شعرهم كان فيه الكفاية للتعبير الكامل عن حياتهم الشعورية الأصيلة ؛ ولأن الشعر الإغريقي لم تنس أساطيره في ضميرهم ، ولم تندس في كيانهم لتصبح شيئاً غامضاً تائهاً كما كانت في كيان الإغريق !

* * *

هنا تجيء لشكلتك أنت بالذات . بل لشكلة جميع الذين يجعلون الأساطير الإغريقية أساساً لأعمالهم الفنية ، ولو كانوا من الأوربيين المحدثين — على أنهم ورثة هؤلاء الإغريق — !

إن الأسطورة لا تعيش في دمائكم — وفي دمك أنت المصري بوجه خاص . إنها لم تنبع من ضمير شعبك . إنها لم تصاحب تاريخك . فكيف تنشيء منها أدباً له حياة ؟

قد تقول : إنك تحسن عملك الفني على أساس يتفق مع طبيعة الأسطورة ؛ بل مع طبيعة التراجيديا الإغريقية ، وقد قلت ذلك . قلت : إن الشعور الديني هو أساس التراجيديا ، وأن هذا الشعور عميق في حسك . فأنت تشعر بازدواج العالم ولا ترى أن الإنسان وحده في هذا الوجود .

ولكن هذا كلام عام . ألمح فيه تفكير الذهن ولا أتذوق فيه طعم الشعور .

إن الميثولوجيا الإغريقية مختلفة في طبيعتها عن المتبعين الأصيلين لك كمصري مسلم . فلا هي تتفق مع طبيعة الميثولوجيا المصرية القديمة ولا مع العقيدة الإسلامية الحديثة .

الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية تدفعها حيوية عارمة إلى كل تصرفاتها . حيوية لا تعرف العدل والحق والخلق والضمير ، لأنها حيوية عاتية شهوانية باطشة . فليس لديها ما يمنع من صب كل هذه اللعنة على «أوديب» لمجرد شهوة أو حقد من « أبولون » . كذلك صنعت مع « هرقل » وكذلك صنعت مع « بروميثيوس » وغيرهما . وجو الأساطير الإغريقية كلها يوحي بهذا الطابع الخاص الأصيل . وهذه الآلهة نفسها يسيطر عليها « القدر » أو قوة تشبهه ، وقد لا تكون مخيرة هي الأخرى في دفعاتها وشهواتها وبطشاتها !

والآلهة في الميثولوجيا المصرية القديمة تسيطر عليها فكرة العدل والخلق والحق — في الغالب — فلعنة مثل لعنة « أوديب » غير مستساغة في ضمير الميثولوجيا المصرية القديمة .

فأنت — يا صديقي — بضميرك المصري القديم لا تعيش في نفسك هذه الأسطورة الإغريقية !

وأما الإسلام فينبذ نهائياً فكرة الشهوة والظلم من ذات الله . وقد بينت أنت نفسك أن فكرة القدر في الإسلام لا تتفق مع الفكرة الإغريقية .

فأنت — يا صديقي — بضميرك الإسلامي الحديث ، لا تعيش في نفسك هذه الأسطورة الإغريقية !